الملتقى الدّولي

تجديد التفكير الدّيني في الإسلام

محمّد إقبال نموذجا

15-16-أفريل 2025م

عنوان المداخلة

البُعد الصّوفي للفكر الإصلاحي عند محمّد إقبال

المحور الأول للملتقى: دواعي و مجالات تجديد التفكير الإسلامي عند محمد إقبال.

أ.د/ البشير قلاتي

كلية أصول الدين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم لإسلامية (قسنطينة)

الكلمات المفتاحية:

الفكر الإصلاحي، البعد الصوفي، محمّد إقبال.

مقدمة:

أمام التحديات الكبرى التي يواجهها المسلمون في العالم، تقوم الثقافة الإسلاميّة بدورها في مواجهة أخطر هاته التحديات . حيث يتولى أعلامها من مفكرين وعلماء التصدّي لها لمختلف جوانب الغزو الفكري الشرس الذي تتعرض له ، توضيحا للفكرة الإسلامية و محاولة إماطة اللبس الذي يحاول أعداؤها إحاطتها به، و هو جوهر الصراع الحضاري الذي يحتدم داخل المنظومة الثقافية في العالم الإسلامي ....

في إطار هذا الصراع عرفت الساحة الثقافية في شبه القارة الهندية بروز عديد المفكرين و الدعاة المصلحين الذين بحثوا في عمق ظاهرة التخلف التي يعاني منها المسلمون.... من هؤلاء أبو الأعلى المودودي (1903-1979م) (رحمه الله) مؤسس الجماعة الإسلامية، والشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (1885-1944م) (رحمه الله) مؤسس جماعة الدعوة والتبليغ...

يبرز اسم الشاعر والفيلسوف الهندي المسلم محمّد إقبال (رحمه الله) (1877-1938م)، كأحد كبار مفكري الإصلاحيّة الإسلامية في شبه القارّة الهندية في القرن الماضي ، ممّن حاولوا تقديم فلسفة عميقة في الفكر الإسلامي عبر جهود ثرية للمشروع الإصلاحي الإسلامي.

من خلال رحم الأزمة التي تمر بها الأمة الإسلامية ؛ انصبّت همّة إقبال عن البحث في عمقها ، محاولا رسم طريق للخلاص ، بطرح شمولي يتعمق فهم أسبابها داخل نفس المسلم و سلوكه، باحثا داخل أعماقه ضمن ما يسميه فلسفة خودي (الذات)، وهو ما يبرز البُعد الروحي في مشروعه الإصلاحي ، من خلال تأثره بطروحات الصوفية؛ نحاول من خلال هذه الورقة

البحثية ، الكشف أحد أهمّ خلفيات الفكر الإصلاحي عند هذا المفكر البارز، الذي حازت طروحاته الفكرية اهتماما كبيرا داخل الوسط الثقافي الإسلامي وخارجه،،،

وعليه فإن إشكالية الدراسة تتمحور حول دور البُعد الصوفي (بما هو منهج للتزكية للذات)، في توجيه الحركة الإصلاحية عند محمد إقبال فكرا و ممارسةً .

أهداف الدراسة:

كشف الأثر الصوفي، كإطار للتزكية والتوجيه الروحي السلوكي، و تحليل دوره في تشكيل طروحات الفكر الإصلاحي عند محمد إقبال .

ثقافة محمّد إقبال:

ولد محمد إقبال سنة 1877م(1294هـ) من أسرة تمتد لأصول برهمية واعتنق أحد أجداده الإسلام في مدينة (سيالكوت) ، يعود نسب أسرة إقبال إلى براهمة كشمير ، نجده يشير في بعض أشعاره إلى أنه من كشمير ببلاد الأفغان كما في قوله:" إن جسدي زهرة من حبة كشمير و قلبي في حرم الحجاز و أنشودتي من شيراز" (محمد إقبال، 2011م، ص13) .يشير إلى ذلك في ديوانه (ضرب الكليم) يقول فيها:

وإنني في الأصل سومناتي **إلى مناة نسبي واللات

وأنت من أولاد هاشمي ** وطينتي من نسل برهمي. (عبد الوهاب عزام، 2015م، ص 16). .

أسلم أحد أجداده قبل ثلاثة قرون ،في عهد الدولة المغولية ، ثم استوطن أحد أجداده واسمه حمد رفيق سيالكوت من ولاية البنجاب لطلب الرزق، عرف عن أحد أجداده واسمه الشيخ محمد رمضان التصوف و كتب كتابا في التصوف باللغة الفارسية وحتى أبوه كان ميالا للتصوف ،يروي عنه أنه كان يوجهه في قراءة القرآن بما يجعله يتمثل معانيه ويشعره بمسؤوليته في استيعاب أحكامه وتطبيقها، فيقول :" يا بني إقرأ القرآن، وكأنه أنزل عليك...".(عبد الوهاب عزام، 2015م، ص 17).و الهدف من هذا التوجيه التربوي تنبيه الوالد لابنه أن يستشعر معاني روح الآيات القرآنية في أعماق قلبه ،لا كمجرد تلاوة لآيات يقرؤها وفق ضوابط أحكام خاص.

درس إقبال اللغة الفارسيّة والعربية إلى جانب لغته الأردية ، ثم رحل إلى أوروبا لمواصلة الدراسة وناقش لجامعة ميونيخ بألمانيا رسالة الدكتوراه عام 1908م. في أوروبا كان حريصا في تجواله بين أقاليمها على التعريف بالإسلام والدفاع عنه ، حتى استدعاه، كما يذكر عبد الوهاب عزام، (موسوليني) لإيطاليا لإلقاء محاضرة في روما حول الفرق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وفيها أكّد على أن سبب تخلف المسلمين هو بعدهم عن دينهم...زار إسبانيا وتأثر كثيرا وهو يرى معالم حضارة المسلمين في الأندلس.. (محمد إقبال، 2011م، ص14) ..بعد ثلاث سنوات قضاها في أوروبا رجع إلى الهند عام 1908م،واشتغل بالمحاماة التي نال إجازتها ببريطانيا .

توظف أستاذا بالجامعة لمادة الفلسفة و الأدب. ثم استقال منها و تفرغ لعمله في المحاماة.(عبد الوهاب عزام، 2015م، ص 41 ،42). .

عُرف بنشاطه السياسي كعضو في الجمعية التشريعية بالبنجاب ، يشهد صديقه السير (محمد علي جناح) ، أن إقبال (ومنذ أصبح عضوا في الجمعية التشريعة بالبنجاب بداية عام 1926م) كان قويا ثابتا في أحلك الظروف التي مرت بها الرابطة...من أنشط من عرفهم من رجال باكستان... ، و كما يبدو فقد كان نهما في قراءة الكتب كما يذكر بعض من عرفوه عن قرب....(عبد الوهاب عزام، 2015م، ص،ص19، 20، 29) .

إقبال المفكّر العضوي

المفكر العضوي ، مصطلح عرف عن المفكر الإيطالي (أنطونيو غرامشي) ؛ وتعني المفكر الذي لا يعيش في برج عاجي بعيدا عن معاناة مجتمعه ، وتعني المثقف الذي يحمل هموم أهله ومجتمعه وبلده ويحاول إيجاد الحلول لمشاكله ،،،،وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعتبر محمد إقبال مثقفا عضويا عاش ومات وهو يحمل هموم المسلمين ويدافع عن قضاياهم ،خاصة المسلمين الهنود...

آلم إقبال ما وقع و يقع لأمته من استغلال القوى العظمى لمقدرات العالم الإسلامي البشرية والمادية والثقافية... ، فانخرط في السياسة منافحا عن حقوق المسلمين في شبه القارة الهندية، بعد عودته إلى الهند عام 1908م ، انخرط في العمل السياسي للدفاع عن حقوق المسلمين الهنود،،،و في عام 1930م تولى رئاسة حزب العصبة الإسلامية وعين عضوا في مؤتمر الله أباد ورفع صوته بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس.....ينقل عبد الوهاب عزام، عن محمد علي جناح، أول رئيس لدولة باكستان، شهادته عن (إقبال) قوله:" كان لي صديقا وإماما وفيلسوفا، وكان في أحلك الساعات التي مرت بالرابطة الإسلامية راسخا كالصخر، ولم يُزلزل لحظة واحدة قط". (عبد الوهاب عزام، 2015م، ص37).

افلاس الحضارة الغربية:

ينظر إقبال للحضارة الغربية من خلال تجربته الذاتية التي خبر فيها المجتمع الغربي والبريطاني منه على وجه الخصوص؛ حيث أقام هناك ردحا من الزمن، طالبا ومدرسا في مدارسها وجامعاتها وعليه في خبير بقضايا ومشاكل المجتمع الغربي ؛((وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)) (سورة فاطر 14) ، ولذا تراه يصف الحضارة الغربية أنها بهرج مادي ومظاهر فارغة من الروح ، سطحية الفكر... و يقابلها شرق ضعيف متخلف ، رغم امتلاكه للرصيد الروحي في بعده الجواني...وهو مساحة إنسانية كبرى تحتاج إلى من ينقذها؛ وعليه لا يمكن أن يحصل المراد بإنقاذ الغرب إلا من خلال إعادة القطار إلى سكته الطبيعية في استعادة المقصد الروحي، و إلا انحرف ودمر ذاته؛ وذلك مقرون بمحاربة العدو الكامن في نفسه المتمثل في النزعات الفاسدة والأنانية القاتلة.. التي تؤدي إلى الهلاك المحتوم. يرى إقبال أن الغرب يدمر نفسه بنفسه في سلوك ينم عن انتحار متسارع لحضارة عرجاء تقوم اساسا على عبادة المادة وتقديس الذات واحتقار الآخر والتعالي على الإنسانية ،بسبب فراغها الروحي الذي تعانيه الكفيلٌ بتدميرها.. (عبد الوهاب عزام، 2015م، ص27).

لم يغتر إقبال بمظاهر التقدم المادي للغرب و يعتبر المفكر الإسلامي أبو الحسن الندوي (رحمه الله) : أنبغ عقل أنتجته الثقافة الجديدة وأعمق فكر أوجده الشرق في عصرنا ... وهو ما جعله ينظر لهذه الحضارة كبناء مزيف رغم حيويتها الظاهرة، إلا أنها تعاني في صمت علامات الاحتضار ، ولا غرابة فإن كل عش بني على غصن ضعيف ليس له استقرار.....رغم أن قوتها الظاهرة كانت نتيجة عقل جبار وعلم نافذ ،،،إلا أن بعدها عن الدين أفقدها التحكم في النفس ، رغم تمكنها من التحكم في الطبيعة..(الندوي، الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية، 1968 م، ص ص 97، 102،) ؛ ولهذا يستشرف إقبال (رحمه الله) مصيرا بائسا للحضارة الغربية ؛ لاستغراقها في الشهوات المادية ،فنراه يرفع صوته عاليا مخاطبا الغرب: " يا ساكني ديار الغرب، ليست أرض الله حانوتا؛ إن الذي توهّمتمُوه ذهبا خالصا ، سترونه زائفا ، وإن حضارتكم ستبعج نفسها بخنجرها؛ إن العش الذي يُبنى على غصن دقيق لا يثبت..." (عبد الوهاب عزام، 2015م، ص29)

أثر التصوّف في الفكر الإصلاحي عند محمّد إقبال :

يذكر الأستاذ عبد الوهاب عزام (رحمه الله) (سفير جمهورية مصر العربية في باكستان) في بدايات كتابه (محمد إقبال ، سيرته وفلسفته وشعره 1959م، ص 4) ، أنه في بداية الأمر سمع عن صوفيّ في بلاد الهند اسمه (محمد إقبال) له نظرات في التصوّف وفلسفة في النّفس ، وقد تم تداول اسمه في بعض المجلات في أوروبا.. (عبد الوهاب عزام، 2015م، ص 27) و يبدو أن السفير لفت انتباهه فكر محمد إقبال، خاصة، وهو رجل مثقف واسع الاطلاع ، معروف بدراساته الصوفية...) ألف عديد الكتب في التصوف منها كتابه " التصوف في الشعر الإسلامي" (1933م) و كتابه حول "التصوف و فريد الدين العطار 1945م)...كما نراه يعبّر عن حبّه الكبير لمحمد إقبال وإعجابه بشعره الصوفي ، فيلقّبه بشاعر الإسلام وشاعر الإنسانية (عبد الوهاب عزام، 2015م ، ص ص13 ، 14 ،18).

تقوم الرؤية الفلسفية للإنسان عند إقبال على قاعدة معرفة النفس؛ بحيث إذا عرف الإنسان نفسه وسبر غورها، تمسّك بآداب المعرفة وتكشفت أمامه اسرار الملوك .....و هو ما يدفع هذا الفقير ليرتقي فيصبح أسدا من أسود الله وأفضل شأنا من أكبر ملوك العالم..(إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، (محمد إقبال، 2011م، ص26)

لا شك أن للجو الرُّوحاني للتصوف الذي يسود الهند، وهي بلد كبير يعجُّ بمختلف الديانات ، كالهندوسية والجينية وغيرها .....، بما كان له تأثير على فكر إقبال، كما يشير إليه السيد حضرت عنايت خان ، كما كان شعار (اعرف نفسك) شعارا أساسيا لأهل الصفاء الروحي؛ لأن معرفة النفس أساس معرفة الله ...والتصوف حسب إقبال يهدف أساسا إلى التخلص من الأنا الشهوانية الكاذبة المغرورة.(وطأة النفس الأمارة بالسوء)، مؤكدا على أن اسم التصوف مشتق أساسا، من الصفاء أو التصفية؛ بمعنى تصفية النفس وتخليتها من الأدران..(حضرت عنايت خان،2008 ،ص ص 18 ، 19،.....24).

و مما يثير انتباه الباحث في ثقافة إقبال (رحمه الله) تأثره بمحيطه الأقرب بتوجيهه التربوي في أسرته التي يظهر تمثلها لقيم التصوف ؛ حيث كان أحد أجداده وأخوه الشيخ محمد رمضان صوفيا وألف كتابا في التصوف باللغة الفارسية كما

يذكر عبد الوهاب عزام، دون أن يشير إلى عنوان الكتاب ، كما يذكر أن أشد ما تأثر به وصية والده له التي لازمته منذ طفولته ،فقد كان يقرأ القرآن يوما فسأله أبوه ماذا تقرأ يا بني..؟ ، فأجابه أقرأُ القرآن....فقال له : يا بني إقرأ القرآن كما لو أنّه أُنزل عليك"..(عبد الله عزام، 2015م، ص 17)، وعليه نجده يصرح في رسالة إلى أحد أصدقائه : " "إني بفطرتي وتربيتي أنزع إلى التصوف ،وقد زادتني فلسفة أوروبا نزوعا إليه ،ففلسفة أوروبا في جملتها تتوجه إلى وحدة الوجود، ولكن تدبر القرآن المجيد ومطالعة تاريخ الإسلام بإمعان أشعراني بغلطي . " (عبد الله عزام، 2015م، ص 70) ؛ و كلامه هذا في حقيقته ليس دعوة لاستنكار التصوُّف، وإنما دعوة لاستنكار الرهبانية... " وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ." (سورة الحديد : 27) ؛ فثقافة إقبال ضمن إطار حمله فكرة تجديد الفكر الديني في الإسلام تتضمن روح التصوف مع رفض النزوع إلى الرهبانية التي ابتدعها الغلاة.... ومن هنا نجده يستنكر حالة السّكر التي يقع فيها الصوفية ؛ لأن الإسلام يدعوا المسلمين إلى الصحو واليقظة والحركة الفاعلة في البناء والانجاز، كما كان عليه حال الرسول الأعظم وصحابته الكرام.... ومن ثم فإن إقبال يرفض ما يدعو إليه بعض متفلسفي الصّوفية من القول ب(وحدة الوجود) وينتقد (محي الدين بن عربي) ، الذي وضع، خطأ، الوحدة مقابل الكثرة ، في حين أو الواحدية الإلهية ضدّ الشرك.. و في الإسلام هناك إله واحد لا شريك له وعباده مطالبون بعبادته وحده... على هذا الأساس يرفض ما يذهب حافظ الشيرازي (هو شمس الدين محمد حافظ الشيرازي (725-792هـ/ 1326-1390م .) الملقب بـ خواجه حافظ الشيرازي والشهير بـ لسان الغيب من أشهر المتصوفة في إيران) ، الذي يزعم أنّ شهيد العشق (الصوفي) أفضل من شهيد الجهاد في سبيل الله، على اعتبار أن هذا قتيل العدو ،وذاك قتيل الحبيب....!!، وهي دعوى لا أساس لها باعتبار الجهاد فريضة شرعية في الإسلام. ، ويذهب إقبال إلى أن دراسة التاريخ تشير إلى حقيقة أن كل أمة تنهزم عسكريا أمام أعدائها ،تركن إلى الزّهد في الدنيا . (عبد الله عزام، 2015م، ص ص 65، 70، 72)

والدعوة لترك الجهاد مخالف تماما لصريح القرآن في بيان مكانة الجهاد و أهميته في الاسلام ،كقوله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (التوبة/111)

و عليه فإن التصوف عند إقبال مصدر حركة فاعلة ومبعث طاقة في الإنسان المسلم تبعث فيه نشاطا وحيوية للعمل والإنجاز ، وليست مبعث كسل أو خمول أو استسلام أو عطالة؛ فالذات تضعف بسؤال الغير حاجاتها وتقوى بالحركة والنشاط الفاعلية ،ولذلك يقول: "طوبى لمن يحتمل الضرّ و الحرور والظمأ ولا يسأل الخضر كأسا من ماء الحياة". (عبد الله عزام، 2015م، ص 78) .

لا شك أن فلسفة إقبال ، في ما يسمى (أسرار خودي): (أسرار الأنا أو الذات) ، تقوم على بعد صوفي يريد من خلاله مراجعة الذات بالتأمل فيها وإصلاحها وإعادة توجيهها.. متوسّلا (مستعينا) في توضح هدفه بالشعر؛ على اعتباره وسيلة فعّالة في توصيل هدف الخطاب.... يذكر إقبال في مقدمة هذه المنظومة: أن جلال الدين الرُّومي هو الذي أيْقظَه

ونبَّهَه، ودعاه إلى أن يسلك هذه السبيل ويقصد هذا القصد، ويُشيع في الناس بيانه ويُبلغهم رسالتَه. وهو يعترف لجلال الدين بالإمامة في مواضع كثيرة من كتبه. ولما نظم منظومته الخالدة (جاويد نامه) وقص فيها سفره في الأفلاك السبعة، جعل جلال الدين دليله في هذا السفر...يقول: يقول في مقدمة أسرار خودي:

صيَّر الرُّومي طيني جوهرا**من غباري شاد كونا آخرا
ذرة تصعد من صحرائها ** لتنال الشمس في عليائها
إنني في لجُّه موجٌ سرى ** لأصيب الدرّ فيه نيِّرا

يقول إقبال أنه بات يوما شاكيًا نائحًا، فأخذه التعب فنام، فلاح له في الرؤيا جلال الدين الرومي ، فقال له :

يا مجنونا بين العاشقين
من حمَا العشق فاجرِع كل حين
شُق في العين حجاب البصر
وأثِر في القلب هول المحشر
واجعلَنَّ الضِّحك ينبوع البكاء
واملأ القلب دموعًا من دماء
أنت كالكمِّ صموتٌ أبكمُ
انشرن كالورد، ريحًا يفغَم
صعِّدن من كل عضو كالجرس
نوحَك الصامت في كل نفس
أنت نار فأضِئ للعالمين
بلهيبٍ منك أذكِ الآخَرين
جرسَ الركب! تنبَّه لا تنم
واعرف اللذة في نظم النغَم

وبهذا البيت ينتهي كلام جلال الدين. ثم يضيف مُبينًا أثر هذا الكلام في نفسه:

صرت نارًا في ثيابي تُسعرا
صرت كالناي هياجًا أضمِرا
ثُرتُ من أوتار نفسي نَغَمًا
صُغْتُ من حُسن بياني أرَما .....

وهي نماذج من شعره يصف فيها التأثير الروحي الكبير لجلال الدين الرومي على توجهاته الفلسفية الروحية. (محمد إقبال، 2011م، ص 22).

يقوم مفهوم التصوف أساسا على مبدأ المعرفة، معرفة الذات وفق قاعدة (اعرف نفسك)، يقول في ديوان (جناح جبريل) :" إن الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق...وتمسك بآداب المعرفة تكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك....." (محمد إقبال، 2011م، ص26) ، لكن من الواضح الجلي أن إقبال كان معجبا بالتصوف ميالا لمنهج توجيه الذات الروحي المعرفي؛ يصرّح الأستاذ (عبد الوهاب عزام) أنه سمع بنفسه محمد إقبال في زيارته لمصر يقول عن الصوفية أنهم علماء النفس بين المسلمين... (محمد إقبال، 2011م، ص 6).

لكن ما هو التصوف الذي يقصده إقبال..؟ . هل هو ما عليه بعضُ صوفية زمانه من المتواكلين الهائمين في عزلتهم ، المتعالين عن المجتمع..؟... يدعو إقبال إلى تجديد روح التصوف ليكون طاقة خلاقة بناءة ، حيث يشكل مصدر فاعلية ونشاط ؛ حيث ويتم ربطه بالعمل والإنجاز، وهنا يدعوا غلى النزعة (التيو صوفية) (الثيوصوفية) ، إسم مركب من (ثيو) و معناها إله و (صوفيا) و معناها الحكمة ،والمقصود من الثيوصوفية التصوف العملي الإيجابي) . في الفكر الإسلامي المعاصر، بنقله من التقليدية السلبية والنزعة الفردية إلى العملية الاجتماعية. (محمد إقبال، 2011م، ص 30).

ينطلق إقبال في بناء فلسفته بدايةً من تأمل فكري عبر طرح أسئلة الوجود : ماهي طبيعته،؟، ما بنيته؟،حقيقة الإنسان؟ غايته في الوجود؟....على اعتبار أن الفلسفة تقوم أصلا على طرح السؤال حول حقيقة الوجود....لكن العقل الذي يتساءل ، يضع كل سلطة تحت طائلة الشك خلافا للدين الذي ينطلق من الإيمان، وهدف الدين أساسا بناء حياة الإنسان الجوّانية والبرّانية وهدايتها...و هذا لا يعني الوقوف ضد معطيات العقل ونتائج التفكير، لكن التوجيه العقلي يبقى ناقصا عاجزا يحتاج إلى هداية الدين ومصدرها الإيمان والتسليم.. (محمد إقبال، 2011م، ص 14، 15).

لا تقوم المعرفة الصوفية، في فلسفة إقبال ، على العقل وحده بل إن أساسها ومصدرها الإيمان، ،بما يطلق عليه (المعرفة الجوّانية)؛ أي الداخلية أو الباطنية و مصدرها القلب في مقابل المعرفة البرّانية التي يكون مصدرها العقل، ولا يعني ذلك التناقض بين المعرفتين ، فلكلٍ مجاله؛ فالأمر يتعلق بالتكاملية المعرفية بينهما.. وبذلك يردّ على ما ذهب إليه (أبو حامد الغزالي) في (التهافت) الذي أنكر على الفلاسفة الاستنباط العقلي ....و هنا يؤكد إقبال على المعرفة الصوفية التي تسعى إلى الاتصال بالله بما يسميه (الحدس الجواني) الذي مصدره القلب ،الأكثر صدقا وتأثيرا.(محمد إقبال، 2011م، ص ص 36، 40).

يؤكد إقبال على إنكاره الشديد لمنهج المتصوفة ممن حرفوا مفهوم التصوف وممارساته التعبدية وحصروها في طقوس وشطحات فارغة، كما هو الحال عند بعض الطرقيين و عند المسيحيين الذين غالوا في رهبانيتهم وفي المقابل رفض تماما الطابع المادي الاستهلاكي للحضارة الغربية...وعلى ذلك جاء كتابه (أسرار خودي) أو أسرار الذات، تعبيرا عن سطحية الغرب وزيف حضارته.. (محمد إقبال، 2011م، ص ص 26،27 ، 64).

أما عن علاقة الفلسفة بالدين، فيما يتعلق بوحدة الموضوع، البحث في حقيقة الوجود ومصيره وماهية الإنسان....الخ؛ فإن الفلسفة تضع كل شيء موضع شك عقلي بينما الدين جوهره الإيمان والتسليم للنص الشرعي، ومن جهة أخرى فإن هدف العقل الاقناع المنطقي بينما الدين هدفه الهداية....ويخلص إقبال أن التكامل متأكد بين العقل والدين ،كما يؤكد (هوايتهيد) أن "عصور الإيمان هي عصور العقلانية" (محمد إقبال، 2011م، ص 14، 15). ؛ بما يشير إلى الاتفاق بين العقل الصريح والنقل الصحيح كما يقول الأصوليون ...مع أن للعقل مجاله في دراسة وتحليل وفهم الظواهر الطبيعية المادية وللإيمان التسليم للأمور الغيبية التي تدركها الحواس " تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا".(هود: 49)

لا يقبل محمد إقبال المنحى المتطرف الذي يتبعه بعض المدّعين للتصوف ، المتلبسين بطرق الشطح ومظاهر الانفلات من حدود الشريعة...منتقدا من جهة أخرى المغالاة في التوجه الروحي للمسيحة ومن جهة أخرى الطابع المادي للحضارة الرومانية ، مؤكدا على قيمة الإسلام في جمعه بين التوجه الروحي والمادي ، مطالب الروح ومطالب الجسد.... ،وهنا يؤكد أن لا تناقض بين العقل والدين، وهو ما تؤكده النظرة الشاملة للقرآن الكريم ،خلافا لما يذهب إليه الفيلسوف اليوناني (سقراط) الذي يتمحور حول الإنسان و (أفلاطون) الذي يحتقر الإدراك الحسي....وحتى بعض علماء وفلاسفة المسلمين من الذين دافعوا عن الفلسفة اليوناني كابن رشد أومن الذين أقاموا منهجهم الفكري على الشك كالإمام أبي حامد الغزالي...رغم أنه انتهى إلى تبني التجربة الصوفية ، والتجربة الصوفية التي يشيد بها محمد إقبال ، قد تتعرض في بعض مناحيها إلى النقد ويتم تحديدها حسب معيار الشريعة وهو ما توصل إليه بتوفيق كبير المؤرخ الإسلامي الكبير (عبد الرحمن ابن خلدون) في مقدمته ممّا نقده فيها بعض سلوك الصوفية في عصره.

حقيقة التجربة الصوفية عند إقبال:

ممّا يمكن استخلاصه من خصائص التجربة الصوفية عند إقبال:

1)-الذاتية: بمعنى أنها تجربة شخصية ،يعيشها صاحبها ، لأن :" الله ليس كينونة مستقلة وليس منظومة مفاهيمية تخضع للعقل والمنطق، ويستشهد بمقولة إبن عربي: "الله محسوس مشهود والعالم معقول"..

2)-لا تقبل التحليل أو التركيب.

3)- التوحُّد ؛ أي توحد الذات مع ذات أخرى متفردة وسامية في حالة من الفناء الشعوري..

4)- شعور ذاتي يتعذر عن التفسير أو التعبير أو التفكير...وكان هذا الحال شعر به أبو حامد الغزالي (رحمه الله) فاستحضر بيتا من الشعر يعبر به عن حالة الفناء التي يشعر بها الصوفي ويقول:

فكان الذي كان مما لست أذكره**فظن خيرا ولا تسل عن الخبرِ

يؤكد إقبال على أن مفهوم الزمان في التجربة الصوفية مفهومٌ نسبيٌّ ، لا ينقطع عن التعاقب الزمني المحسوس، ولا ينفصل عن الواقع الحقيقي المعيش لمجرد أنه لا يتأتى بطريق الحواس... بما يبرز تهافت المذهب المادي ، و تؤكده نظرية

النسبية التي توصل إليها العالم الفيزيائي (ألبرت إنشتاين)- Albert Einstei : 14 مارس 1879 -18 أفريل 1955م ، والتي أدمجت الزمان والمكان في وحدة واحدة... (محمد إقبال، 2011م، ص 64).

ورغم ما ذهب إليه إقبال في منافحته عن التصوّف، لا يمكننا إنكار ما يقع فيه بعض الصوفية ممن صرحوا بأقوالهم الظاهرة عن أشياء تتعارض مع حقائق الشريعة ، حتى أن بعضهم عرض نفسه لحدّ العقوبة الشرعية، مثل (أبو منصور الحلاّج) الذي تنسب إليه ألفاظ ظاهرها يوحي بادعاء الألوهية كقوله: " أنا الحقّ"، أو قوله " ما في الجبّة إلا الله "..!!...مما يوحي بالقول بالحلول أو الاتحاد، وهو ما يعني الوقوع في صريح الكفر ، و المعروف أن الشريعة تحكم بالظاهر لا بالسرائر... ومن المهم أن نشير إلى أن بعض المتصوف عابوا على إقبال تركيزه في فلسفته على (خودي/الذات) التي أعلى من شأنها ،مع أن الذات أو النفس مذمومة في الإسلام الذي يدعوا إلى مخالفتها و مجاهدتها،،،لكن الحقيقة أن إقبال(رحمه الله) في فلسفته يدعوا إلى معرفة حقيقة الذات والرقي بها وليس إضعافها وتعذيبها ،كما يفعل غلاة الهنادكة وبعض المتنطعين من الصوفية. (عبد الوهاب عزام ، 2015م، ص 69). وهنا ينبغي الإشارة إلى تنبيه إقبال أن الغرب الاستعماري نفسه قد يقف وراء هذا المنحى في الدعوة إلى الرهبنة والسكون والزهد في الدنيا الذي يسلكه كثير من المتصوفة المسلمين ، ومحاولة إقناعهم بالتقشف وترك الدنيا ، وهذا حتى يتمكن من الاستيلاء على خيرات أرضهم ويبكيهم سادرين في تخلفهم ، بينما أسلافهم من الصحابة والتابعين فهم الزهد والتصوف على أنه مصدر طاقة وحيوية وإنجاز وجهاد في سبيل الله فتحركوا ونشروا دعوة الخير في ربوع الأرض...وفي هذا ما يعبر عنه إقبال في قوله على لسان الإستعمار الغربي:

إن هذه الدنيا مرعى العدم**فإياك أن تركن إلى هذا الوهم.

و يبقى إقبال نموذج للمفكر العضوي المنخرط في هموم العالم الإسلامي المنافح عن دينه وأمته، بقلمة وشعره وحركته في التدريس الجامعي كأستاذ لمادة الفلسفة والأدب العربي والأدب الانجليزي أو كمحامي مع نضاله السياسي المنظم في إطار حزب الرابطة الاسلامية، كما يشهد له صديقه الزعيم الباكستاني محمد علي جناح ، أنه حمل مفهوما نبيلا للسياسة في تحقيق حقوق شعبه وأمته بعيدا عن الماكيافيلية ... (عبد الوهاب عزام ، 2015م، ص ص 46، 49)..

نخلص مما سبق أن محمد إقبال (رحمه الله) فيلسوف الذاتية (خودي) قد تمكن ،إلى حد كبير، من تخليص الإبريز الصوفي من أدرانه وما تعلق به من سفاسف الأدعياء من المتصوفة الذين خلطوه بالعطالة والبطالة والجبر والاستسلام للأقدار المتوهمة،،،اجتهد (رحمه الله)في تجديد الفكر الديني من خلال اعادة الاعتبار للتصوف الحقيقي ؛ بما هو تزكية وتطير للذات، بما كان عليه حال الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام،،،ويقول أساسا على فلسفة رصينة في معرفة الذات ،وتزكيتها وتوجيهها وفق مقتضيات النص القرآني والسنة الشريفة، فهما وتطبيقا، بعيدا عن خرافات المتصوفة المعطلون....

ويمكن اعتبار ذلك عمل تجديدي من إقبال في إطار مشروع تصوف إيجابي بنائي ،لتحقيق ثلاثية :

1-طاعة الله فيما أمر ، يقول : بامتثال الأمر يعلوا من سفل** وهوى الطاغي وإن كان جبلْ

2-معرفة الذات(النفس) وضبطها: جمّل نفسك تربوا بالعلف ** في إباء وعناء وصلفْ

كن الحرّ و قدها بزمام** من حضيض تبلغنّ أعلى مقامْ

3-العزة والكرامة: كل من يمسك بعصا لا إله إلا الله**طلسم الخوف تحطّمه يداه

كل من بالحق أحيا نفسه ** ليس للباطل يحني رأسه

وكان (رحمه الله) يرى أن سرّ الحياة أن تقوّى الذات ،بأن يغوص الإنسان في ذاته، ثم يبرز منها كما تغوص القطرة في البحر فتصير لؤلؤة، والشرر تحت الرماد، قبل أن تصير القطرة لؤلؤة والشرار شعلة..(عبد الوهاب عزام ، 2015م، ص 88).....و هذا ما يعني معرفة النفس بالغوص في أعماقها...

وهذا المعنى يؤكد عليه كثير من المتصوفة الهنود، مثل (عنايت خان) في كتابه (تعاليم المتصوفين) حيث يقول مخاطبا الله : " بحثت ولكني لم أجدك، ناديتك بصوت عال وانا أقف على المئذنة، قرعت جرسا نحاسيا منذ شروق الشمس حتى غروبها، سبحت في نهر الغانج لكن سدى،،عدت من الكعبة خائبا،، بحثت عنك في الأرض ، بحثت عنك في السماء أيها المعشوق....وفي النهاية وجدتك مختبئا كالدُرّة في محارة قلبي..." (عنايت خان، 2006م، ص 14).

خلافا لوحدة الوجود التي دعا إليها محي الدين بن عربي وآخرون، فإن إقبال يرفضها لأنها تحصر الإنسان في فنائه ؛ في حين أن الإيمان يدفع إلى إثبات الذات لا نفيها ،وهذا عبر التخلّق بأخلاق القرآن، وهنا يبرز مفهوم الإنسان الكامل ، وهو الإنسان الذي تخلق بأخلاق القرآن فأثبت ذاته ، وعمل في دنياه وجاهد نفسه ((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)) (العنكبوت-69) ، وهذا خلافا للفلاسفة الإشراقيين الذين يدعون لفناء النفس في الله....

ويمكننا ان نبرز ما يبدو تأثرا لإقبال بالثقافة البوذية التي تحمل في أدبياتها حوارات بين مظاهر الطبيعة :جبال، أشجار، أنهار، حيوانات....فنجده ينظم شعرا يتخيّل فيه حوارا بين نهر الغانج وجبل الهمالايا....

وفيه يتصوّر إقبال النّهر وهو ينتقد الجبل لعدم قدرته على الحركة، فيجيبه الجبل:

إن هذا السير في الحين لك** من يزل عن نفسه يوما هلك

إنما العيش نموٌّ في المكان ** وبروضِ الذات قطف الأقحوان

صخر قلبي وناري في الصخر** ليس للماء إلى ناري ممر

في محاضرة ألقاها في جامعة أوكسفورد أكد محمد إقبال على رسالة الإسلام التي تؤكد على العمل أكثر من الفكر.. والصوفية عملوا كثيرا في تطهير الإدراك الديني وتجديده ،لكن المتأخرين منهم جهلوا العقل الحديث ،فعجزوا عن تقبل

الأفكار الجديدة" ويؤكد أن القوة الروحية أساس كل قوة ، ولا معنى للإنسان دونها، وأنه (أي إقبال) إنما أخذ (أسرار خدي) من حكم الصوفية..(عبد الوهاب عزام، ص،ص 121،113 ،130)

ومما يرجّح ذلك استهلال مقدمة كتابه (أسرار خودي) بأبيات الشيخ الصوفي الكبير (جلال الدين الرومي) يقول فيها:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى** له في كل ناحية مجالُ

يقول مللت أنعاما وبهما** وإنسانا يريد، فهل ينالُ ؟

كما كان للمثنوي المعنوي لجلال الدين الرومي تأثير كبير في نقد إقبال للتيار العقلي الجارف في الفكر الغربي .....معتبرا النموذج الأول الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي يقوم على روح التزكية المعتدلة بلا إفراط ولا تفريط بعيدا عن شطحات المبتدعة لكثير من الطرق الصوفية.(محمد الساعدي،2014م، ص 140 ،141).

ينتقد إقبال في ديوانه (ضرب الكليم) رجال التجديد في الشرق لأنهم جاؤوا للعرب يحرثون أرضا بورا، جافة من الوميض الروحي، وبذلك انجروا في تقليد الغرب...مثلما وقع زعماء وقادة باكستان التي انفصلت عن الهند لتكون نموذجا إسلاميا ،ففشل قادتها حتى في وضع برنامج تربوي للمعارف يتوافق مع روح الإسلام.... ((الندوي ،1968م، ص ص105،110). ويؤكد إقبال أن على الإنسان المسلم أن يجتاز، لتحقيقه خلافة الله في الأرض ، ثلاث مراحل:

1- معرفة الذات (إعرف نفسك) وتتحقق عبر التأمّل النقدي للذات أو النفس(خودي)..
2- الفعل في الذات: كفاح الأهواء والرغبات النفسية (مجاهدة خودي)
3- التحقق بمقام الكمال ، وهو المقام الأعلى : مقام العارف بالله.(نجيب الكيلاني،2015م،ص ص 66، 68) ، وهو الارتقاء إلى مرتبة الولاية " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة" (يونس-62...64)

توفي محمد إقبال (رحمه الله تعالى) فجر الـ21 أبريل/نيسان 1938، ودفن في لاهور (باكستان)

وكان آخر ما قاله بيتا من الشعر ،وكأنه ينعي به نفسه:

آية المؤمن أن يلقى الردى** باسم الثغر سرورا ورضا

رحم الله محمد إقبال وجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء.

خاتمة الدّراسة:

مما سبق من هذه الدراسة يمكننا التأكيد على أهميّة محمد إقبال كأحد كبار المفكرين المسلمين في شبه القارة الهندية وفي العالم الإسلامي، بل وفي العالم كله ،،،،وعليه يمكن أن يكون موضوعا لكثير من الدراسات والأبحاث في مناح عدة من فكره الثريّ : السياسة ، الدّعوة، الفلسفة، الأدب والشعر..

أسهم الرّجل(رحمه الله) في بعث مشروع إسلامي متكامل في شبه القارة الهندية بنشر أفكاره الحيّة المستندة لعقل واع ورصيد كبير من الثقافة الإسلامية لكبار العلماء والفلاسفة ورجال التصوّف، التي حملتها عقول فذّة من تلامذته من بعده، والتي عرفت اليوم انتشارا عالميا... لم يغتر إقبال بزهو ولمعان بريق الحضارة الغربية ،كما فعل بعض من وقعوا في انبهار عاشق لبهرجها الخادع، فهذه الحضارة بالنسبة لإقبال زيف خادع سيأتي اليوم الذي تطعن فيه نفسها بخنجرها...

من خلال تربيته التي تلقاها منذ الطفولة، سواء من رعاية دينية لأبويه داخل الأسرة أو من خلال الجو الروحاني العام الذي يحيط بشبه القارة الهندية بين المسلمين ، نجد إقبال متشبع بروح التزكية التي نفخت في نفسه وعقله الثقافة الصوفية فأنعكس شعاعها عليه، من خلال ما دونه من مقالات ودراسات وكتب مختلفة ،وأثمرت توجها روحيا مهما في الإصلاح وهو التوجه التزكوي الصوفي وهو ما تشهد له كثير من النصوص الشرعية القاطعة : " قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها"(الشمس : الآية 9) ؛ فقد أفلح وفاز من طهّر نفسه (ذاته) وجاهدها ، وخاب وخسر من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانيّ....

لقد كانت المرجعية الأساسية للتصوف في فكر إقبال مرجعية عدول الأمة ، ضمن مشروع إصلاحي تنويري ملتزم بروح النصوص الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه وسيرة صحابته وخيار علماء الأمة ممن يُشهد لهم بالخير والعلم والصلاح....بعيدا عن المنحرفين من أدعياء التصوف الذين أنكرهم وأنكر مذهبهم العدول من علماء الأمة.

نتائج الدراسة:

يمكننا أن نسجل بعض النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة بما يلي:

– أهمية محمد إقبال كأحد أبرز مفكري فلسفة الذات،(أسرار خودي الذات)...وهو ما يحيل إلى تعميق الدراسة في البعد الديني الموجه للسلوك الدافع للحركة ضمن إطار الأحكام الشرعية.

– أهمية بحث و دراسة الإنتاج الفكري للمفكر الإسلامي الكبير (محمد إقبال) فيما يتعلق بمجالات حركته الإصلاحية: ما يتعلق منها بالدين، السياسة، الفلسفة.....مع مقارنتها بأبحاث غيره من مفكري العالم الإسلامي..

– تصحيح المفاهيم الدينية، خاصة منها (التصوُّف) عن طريق دراسات موضوعية شاملة ،ومحاولة تصحيحه مما شابه عبر العصور من تلوّث ساهم فيه جهل و غوغاء طوائف من أتباع بعض الطرق الصوفية ؛حيث التبس على بعض الأفهام ، بمظاهر الشطح والغناء والعطالة والسلبية والتزهّد الظاهري .

– تشجيع طلبة الدّعوة الإسلامية على بحث مواضيع حول التزكية ومنهجها عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه وكبار علماء التزكية ؛ باعتبار التزكية أساس جوهري في منهج الدعوة الإسلامية .....وعلى اعتبار أن من أهم ما رُزئت به الأمة تشويه التصوّف بإلصاق ما سبق ذكره من أباطيل بعض الطرقيين ، لتنفير الناس منه وبالتالي إبعادهم عن منهج التزكية الحقة في إصلاح القلوب وتطهير النفوس وهو أساس كل دعوة للإسلام...

–أهميّة الشعر كوسيلة في تبليغ الرسالة الإسلامية لشعوب وأمم بعيدة ،فإقبال، الشاعر، (رغم الرمزية التي تطبع قصائده)، نجح إلى حد كبير، في تبليغ أفكاره الحيّة عبر أبيات وقصائد ماتعة خلّدت أفكاره في الإصلاح والدعوة ،وتستحق فعلا الدراسة في الجامعات العالمية. وقد تم ذكر بعضها في هاته الدراسة المختصرة.

وبالله السداد والتوفيق.

د/ البشير قلاتي

المراجع :

1)– أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، لبنان: دار الندوة للتوزيع ،ط 2 ، 1388هـ–1968.

2)– حضرت عنايت خان، تعاليم المتصوفين، ترجمة إبراهيم استنبولي، سوريا، دمشق: دار الفرقد، ط2. تموز 2008م.

3)– عبد الوهاب عزام، محمد إقبال، سيرته و فلسفته و شعره، مطبوعات باكستان، 1373هـ–1954م،د ط.

4)– محمد إقبال ، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة محمد يوسف عدس، تقديم د– الشيماء الدمرداش العقالي، القاهرة : دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، عام 2011م.

5)– محمد عوض، العلامة محمد إقبال، حياته وآثاره، القاهرة: الهيأة المصرية للكتاب ، القاهرة: 1980.

6)– نجيب الكيلاني، إقبال، الشاعر الثائر،ط1، القاهرة: دار الصحوة، 1437هـ–2015 م.